إنجي أفلاطون: من القصر إلى صفوف الكادحين

الفن لغة مقدسة؛ يعبر بها الإنسان عن نفسه؛ عن الصراعات التي تدور داخله، وأسئلته الوجودية. الفن ضرورة حياتية، وتجربة إنسانية –مهمة ومعقدة– تشكل وعي الشعوب، وثقافتها، ويعبر عن أفكارها وأحلامها، الفن تعبير عن "الروح المطلقة".

من أبريل 1924م إلى أبريل 1989م عاشت " إنجي افلاطون" أعواما من التمرد. من قلب أسرة برجوازية تتحدث الفرنسية –ولا تتحدث العربية ولا تعرف مفرداتها– خرجت "إنجي" إلى الحياة، لتجد نفسها تسكن قصرًا كبيرًا من قصور القاهرة. الأب "حسن أفلاطون" عميد كلية العلوم، و"الأم" إحدى عضوات اللجنة النسائية في الهلال الأحمر المصري، أما جدها فكان وزير الجهادية والبحرية في عهد الخديوي إسماعيل.

كبرت إنجي في عائلة ميسورة الحال –لا تعلم شيئا عن الفقر أو الحاجة– درست في مدرسة "القلب المقدس" في القاهرة، ثم التحقت بالثانوية الفرنسية – الليسيه– وكانت كثيرًا ما تشعر بالاغتراب في بلد لا تعرف عنه الكثير، ولا حتى تتحدث لغته، فكانت تعيش حياة بعيدة عن جذورها المصرية، فبدأت تعلم اللغة العربية، وهي في سن السابعة عشرة.

وفي نفس الفترة، تصادف أن زار بيت العائلة الفنان المشهور "محمود سعيد"، والذي عندما رأى لوحاتها علم أنه كان على موعد مع فنانة صغيرة السن، لكنها كبيرة في فنها، فعرفها على الفنان والمخرج "كامل التلمساني" _ المعروف بأعماله الفنية الاحتجاجية والساخرة من الأعراف الاجتماعية _ ليقم الأخير بدوره في تبني موهبة "إنجي" وتطويرها، وعرّفها على الفن السريالي، والتكعيبي؛ لتبدأ في بلورة موهبتها، وتبني الفكر السريالي في أعمالها _الذي تغير بعد ذلك لتنضم إلى المدرسة الواقعية_ فقدمت أول أعمالها عام 1941 في المجموعة الفنية المعروفة باسم "الفتاة والوحش".

وبجانب الفن وتطوير الموهبة، كان للتلمساني دورٌ آخر في فتح عينيها على الفكر الشيوعي، فكان يقص عليها قصص معارك العمال والفلاحين المصريين، فبدأت في رحلة البحث عن: الحرية، والحقيقة، رحلة تنادي بالعدالة الاجتماعية والمساواة.

وجاء اشتراكها في حركة "الفن والحرية" تعبيرًا عن رفضها لتوجهات البرجوازية التي تدهس تحت أقدامها "البروليتاريا"، فكانت الحركة التي تكونت على يد أستاذها "التلمساني" تنادي بتحرر الفكر، وحرية الأمة عن طريق الفن، هذا الأمر الذي أشعل اهتمامها بالسياسة والماركسية.

كان لتوجهها السياسي والفكري عميق الأثر على فنها، فكانت الأحداث السياسية والاقتصادية مصدر إلهام للكثير من أعمالها الفنية، حيث أظهرت تلك الأعمال شقاء جموع الشعب العاملة، كما أنها اتخذت أسلوبًا جديدًا وأكثر واقعية _ حيث لم تعد ترى السريالية أسلوبًا مناسبا _عبرت عن ذلك بقولها: "كانت أمنيتي الرئيسة في ذلك

العصر هي التعبير عن: الواقعية، وأحلام العامل الذي يكدح تحت ظروف عمل مزعجة من دون قانون يحميه". إلا أن تعاطفها تجاه الفقراء جعلها في النهاية تنضم لحركة "إسكرا" الشيوعية عام ١٩٤٤.

لم تكتف بالانضمام إلى الحركة الشيوعية فقط، ولكنها أصبحت من مؤيدي الحركة النسائية، لتنضم إلى قائمة رواد الحركة النسائية في مصر، ولم تمثل أيديولوجيتها الشيوعية عائقا أمام ذلك، بل كانت ترى " أن "النسوية والماركسية " وجهان لعملة واحدة؛ لأن القمع الإمبريالي هو الدافع وراء كفاح النساء، وكفاح الطبقة العاملة (البروليتارية).

أسست "إنجي أفلاطون" بالتعاون مع "سيزا نبرواي" لجنة الشابات بهدف إحياء الاتحاد النسائي المصري، وواصلت تطوير أفكارها النسوية، ثم كان موعد انطلاق منشورين هامين شهيرين هما:" ٨٠ مليون امرأة معنا" و"نحن النساء المصريات"، وهما تحليل لقمع النساء والأمة على السواء، وفيهما قدمت "أفلاطون" رؤيتها في مجال العلاقة الجدلية بين حرية المرأة وتحرر الأمة .

وفي مذكراتها التي نشرها سعيد خيال بعد ذلك، في كتاب بعنوان "مذكرات إنجي أفلاطون"، قالت إنجي: "فكرت أن يكتب مقدمته شخص له وزنه واحترامه، فيقدمني للقراء، فجمعت شجاعتي، وأنا ارتعد خجلا وخوفا، وذهبت إليه في يوم من أيام الأحد، حيث كان يخصصه لاستقبال زواره"، وأضافت: "قدمني سكرتيره: الآنسة إنجي أفلاطون، فقال الأستاذ " طه حسين " مبتسما: أهلا بالآنسة الشيوعية، فاحمّر وجهي وازداد خجلي، لكن رقته ولطفه أدركاني، انتحى بي جانبا، وسألني عما أريد، فشرحت له رغبتي، فطلب أن أترك الكتاب ليقرأه، ووعدني بكتابة المقدمة إذا راق له الكتاب، وما هي إلا بضعة أيام مرت، حتى اتصل بي سكرتيره، وأخبرني أن الأستاذ كتب المقدمة، وكانت لحظات من أسعد أوقاتي" .

– فقدان الزوج والحبيب ورفيق الدرب :

تزوجت "إنجي أفلاطون" من قاضي تقدمي يُدعي حمدي في عام 1948م، وعاشت معه أسعد أيام حياتها.. سعادة لم تدم طويلا، حيث توفي عام 1957م علي إثر ضرب ضباط المباحث له ضربًا وحشيًا، وفقدت إنجي الحبيب ورفيق الدرب.

وفي 8 يناير 1958م، أصبحت عضوا قياديا في الحزب الشيوعي المصري، وكانت من المعارضين للتجربة الناصرية، ومثلها مثل جميع الشيوعين في هذا الوقت الذين لم يجدوا في الدولة الناصرية حلا لمشكلات الدولة؛ نتج عن ذلك اعتقالها سرّاً في مارس 1959، مع 25 امرأه من المناضلات، بهدف تصفيه الحركة الشيوعية.

وعاشت الفنانة التي تعشق الحرية وتنادي بها للجميع خلف قضبان سجن القناطر لمدة أربعة أعوام ونصف، وفى بداية فترة سجنها لم يكن مسموحًا لها بالرسم، ولكن بعد فترة ولحسن حظها سمحوا لها بالعمل، ولكن بشرط: أن تصبح كل أعمالها ملكا للسجن فوافقت الفنانة المناضلة؛ لأنها تعلم أنها لا تستطيع أن تعش بدون فنها فهي

تتنفسه، وكانت تعلم أنه بسجنها لم يتبق لها سوى أن ترسم، وتقول إنجي في مذكراتها عن فترة السجن: "عندما دخلت السجن شعرت برغبة جامحة في الرسم، وعدم الاستسلام للواقع".

واتسمت أعمالها في السجن بالطابع التعبيري أكثر فأكثر، حيث أظهرت تلك الأعمال الواقع الأكثر كآبة للحياة في السجن، وكان أبرز أعمالها "شجرة خلف الحائط"، و"ليلة خلف قضبان السجن"، والتي عبرت فيها عن تطلعها للحرية. وأكثر أعمالها سحرًا خلال تلك الفترة هي: "الصور النسائية في السجن"، و "فتاة خلف القضبان"، حيث رسمت كيف تجلس النساء في راحة في عنبر السجينات.

فى عام 1963م خرجت إنجي من السجن، ولم تكن محطمة بل بالعكس خرجت وواصلت الدفاع عن المقهورين، وظلت تنادي بحق الشعب في الحياة الكريمة، وبدأت إنجي أفلاطون تجوب العالم شرقًا وغربًا بفنها، وحصلت على العديد من التكريمات والأوسمة .

وعندما اقتربت من سن الستين، بدأت الابتعاد عن المشاركة في النشاط السياسي والاجتماعي، وكرست مزيدًا من الوقت لفنها، إلا أنها احتفظت بروحها الناقدة وظلت متمردة حتى النهاية.

وفي عام1989 أصيبت إنجي بجلطة توفيت على إثرها تاركة أكثر من ألف لوحة حصيلة مشوارها الفني، ما بين لوحات زيتية وفحم وأحبار، لتقوم بعدها والدتها وأختها بإهداء هذا التراث الفني الذي لا يقدر بثمن إلى وزارة الثقافة، على أن تقوم الوزارة ببناء متحف توضع به الأعمال يليق باسم الفنانة الراحلة.

وفي سبتمبر2011، افتتح بقصر الأمير طاز المتحف الدائم لإنجي أفلاطون الذي يضم بعضًا من أعمالها، بالإضافة إلى العديد من مقتنياتها الشخصية. أما باقي الأعمال، والتي ظلت في مخازن وزارة الثقافة؛ فقد استردتها أسرتها على إثر دعوى قضائية؛ لأن الوزارة لم تلتزم بالاتفاق الذي عقد مع الأسرة.

أتخيل وأنا أسطر هذه الكلمات أن إنجي أفلاطون خُلقت لترسم، وتكون داعية للتحرر والتمرد النسوي، خلقت لتكون حاملة أفكار سياسية تدعو إلى العدالة الاجتماعية، خلقت لتعيش رحلة فلسفية عميقة وتمشي بطريق صعب اختارته بكامل إرادتها، فودعت القصر والحياة المترفة لتعش مناضلة من أجل الفقراء، تناضل بالفرشاة عندما ترسم وبالقلم عندما تكتب.